الملامح الصوتية عند سيد قطب

دراسة تحليلية

أ.م.د.فيصل مرعي الطائي *

تأريخ التقديم: ٢٠١٧/١١/١٦ تأريخ القبول: ٢٠١٧/١٢/٢٠

ملخص البحث :

سيد قطب هو المفسر الوحيد– على حد علمي– الذي وقف عند أصوات النص القرآني المبارك عادًّا موسيقى الأصوات وإيقاعها إشعاعًا للنظم ومكمنا من مكامن التواصل اللغوي، فقد استطاع بحسه المرهف أن يتلمس ذلك الجمال الكامن وراء مجيء الأصوات منسوجة وفق نُسُجٍ معينة في سياقاتها المعينة، لتعزز الأصوات بنُسُجها تلك دلالة الكلمة والجملة والآية.

والذي لفت انتباهي أن سيد قطب – رحمه الله – لمّاح من الطراز الأول، فهو يوصّف الأصوات متلمسا قوة أجراسها وضعفها حاسّا بموسيقاها، رابطا ذلك كله بالدلالة، لكنه في الوقت نفسه لم يؤصل ذلك بمعطيات علم الأصوات من تنغيم وبنية مقطعية وصفات الأصوات ومدود وغير ذلك، ولعل السبب يرجع إلى كونه أديبا يتلمس مواضع الجمال الصوتي بحسب ما يشعر غير معني بأسبابها اللغوية.

وعملي في هذا البحث أنني أقف على الملامح الصوتية التي لمحها سيد قطب في الأصوات القرآنية في تفسيره (في ظلال القرآن) وكتابه (التصوير الفني في القرآن)، وهي أربعون موضعا من غير تكرار، من أجل أن أؤصل لتلك الملامح وأربطها بمعطيات علم الأصوات حتى تتعزز المشاعر والأحاسيس بالمسائل العلمية، وقد بنيت البحث على ثلاثة مباحث –بحسب ما ورد من ملامح؛ **الأول:** الملامح الصوتية الناتجة عن طبيعة الأصوات– صفاتها ومخارجها –، وكان في اتجاهين؛ الملامح السياقية، ووردت في عشرة سياقات حللت منها ثلاثة، وملامح المفردات، ووردت في إحدى عشرة مفردة حللت منها خمساً، **والثاني:** الملامح الصوتية الناتجة عن التشكّل المقطعي، وكانت في اتجاهين –

* قسم اللغة العربية/ كلية التربية الإنسانية/ جامعة الموصل .

أيضا–؛ الملامح السياقية، ووردت في ستة سياقات حللت منها ثلاثة، وملامح المفردات وردت في ثلاث مفردات حللتها كلها، **والثالث:** الملامح الصوتية الناتجة عن التنغيم، ووردت في عشرة سياقات اخترت منها خمسة للتحليل. وقد اخترت نماذج للتحليل قاربت النصف لعدم إمكانية تحليل جميع النماذج بسبب التحدد بعدد الصفحات.

المبحث الأول

الملامح الصوتية الناتجة عن طبيعة الأصوات

لمح سيد قطب في بعض النماذج القرآنية ملامح صوتية ناتجة عن طبيعة الأصوات –من حيث صفاتها ومخارجها– وما تحدثه من تواصلية عالية، وكانت تلك الملامح في اتجاهين؛ **الأول:** الملامح السياقية، **والثاني:** ملامح المفردات، وسنبني المبحث على هذين النوعين:

- **أولا: الملامح السياقية**

لمح سيد قطب في عشرة(*) سياقات ملامح صوتية ناتجة عن طبيعة الأصوات، اخترنا منها ثلاثة نماذج للتحليل:

١- **قوله تعالى:﴿ لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ ﴿١١﴾ ﴾ الغاشية.**

قال سيد قطب في هذا النص: ((تصور الهدوء الآمن، والسلام الساكن، والود الرضي، والظل الندي في العبارة الموحية ﴿لَّا تَسۡمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةٗ﴾وألفاظها ذاتها تنسم الروح والندى، وتنزلق في نعومة ويسر، في إيقاع موسيقي ندي رخي)) (١).

وحين نؤصل لهذا الملمح ونحلله صوتيا نجد أن سيد قطب قد أحسن وأجاد في توصيفها، فهو شعر بسلاسة أصواتها وخفتها على العموم، وإن لم يعلل لذلك صوتيا، لكننا نقول: إن مرجع ذلك هو صفات تلك الأصوات التي تكوّن منها النص، فهي – في جملتها– أصوات ضعيفة خفيفة، ولتوكيد ذلك نقول: يمكننا أن نرصد الأمور الآتية:

(*) السياقات العشرة هي: مريم: ٨٨–٩٧، النجم، المعارج، الطارق، الغاشية: ١١، الليل، الضحى، العاديات، المسد، الناس.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، بيروت – القاهرة، ط٣٧،٢٠٠٨: ٦/٣٨٩٧.

- قلة الأصوات الشديدة في الآية، إذ احتوت على صوت شديد واحد هو (التاء)، والتاء وإن كان شديدا لكنه في الوقت نفسه مهموس وهذا يقلل من شدته.
- ليس فيها إلا صوت واحد من الأصوات المفخمة المستعلية وهو (الغين)، ونلحظ أيضا أنه قد جاء مكسورا، وأصوات الاستعلاء حين تكون مكسورة تكون على أقل درجات التفخيم(١).
- وفضلا عن ذلك ورود المدود الأربعة (٣) للألف، و (١) للياء، وهي تعطي الاية امتدادا واتساعا يكاد يصور لنا اتساع وامتداد ذلك النعيم المقيم في جنة الخلد.

هذا الذي ذكرته جعل سيد قطب يقول عن مفردات هذا النص: (تنزلق في نعومة ويسر) لأن طبيعة الأصوات التي شكلتها ناعمة وضعيفة وخفيفة في النطق لا تكلف المتكلم جهدا عضليا كبيرا.

٢- قوله تعالى: ﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝١١ ﴾العاديات

قال سيد قطب في هذا النص المبارك: ((إن الموسيقى هنا.. فيها خشونة ودمدمة وفرقعة، وهي تناسب الجو الصاخب المعفر الذي تنشؤه القبور المبعثرة، والصدور المحصّل ما فيها بقوة، وجو الجحود وشدة الأثرة، فلما أراد لهذا إطارا مناسبا اختاره من الجو الصاخب والمعفر كذلك)) (٢).

(١) ينظر: الدقائق المحكمات في المخارج والصفات وما يتعلق بهما من الأحكام المهمات، هشام عبد الباري محمد، دار الأيمان، الإسكندرية، د.ت:١٨١، وعلم التجويد – دراسة صوتية مسيرة، غانم قدوري محمد، مطبعة أسعد، بغداد، ط١، ١٩٨٨: ١٢٦.

(٢) التصوير الفني في القرآن، سيد قطب، دار الشروق، د. ت: ١٠٤.

هذا الكلام جميل يصدر من شخص يمتلك ذائقة صوتية عالية، لكنه لم يبين سبب تلك الخشونة والدمدمة والفرقعة التي تنتاب موسيقى هذه السورة الكريمة، وإذا أردنا أن نؤصل لذلك من جهة علم الأصوات فإننا نسجل الملاحظ الآتية:

- احتشدت الأصوات الشديدة في السورة المباركة فتكررت بكثرة، فكان لها حضورها اللافت إذ لم يغب منها صوت، مما أضفى جو الشدة والقوة والفرقعة على أصوات السورة، فقد ورد في السورة (٣٨) صوتاً شديداً، توزعت على النحو الآتي:

الصوت	الباء	الهمزة	الدال	القاف	التاء	الكاف	الطاء	الجيم
عددمرات وروده	١٤	٨	٧	٣	٢	٢	١	١

كان أكثرها وروداً (الباء) الموصوف بأنه: شديد مجهور مقلقل، ثم (الهمزة) الموصوف بأنه: شديد مجهور، ثم (الدال) الموصوف بأنه: شديد مجهور مقلقل، وهذه الشدة مع القلقلة مع الجهر أحدثت تلك القوة والفرقعة التي أحس بها وأدركها سيد قطب.

- ومما عزز جو القوة في السورة ورود الأصوات المطبقة والمستعلية والمفخمة بشكل جيد، إذ إن النطق بها يحتاج إلى جهد عضلي مميز[١]، هذا فضلا عن صوتي (القاف) و (الطاء) الموصوفين بالشدة والاستعلاء والتفخيم، وقد وردت أصوات تفخيم واستعلاء أخرى غير الطاء والقاف هي:

الصوت	الصاد	الخاء	الضاد	الغين
عدد مرات الورود	٤	٢	١	١

فأصوات السورة بما حملت من صفات قوية وشديدة ومقلقلة ومفخمة تناسبت أيما تناسب مع الدلالات المحتواة فيها[٢]. مما صوّر تواصلاً لغوياً كبيراً بين النص الكريم ومتلقيه.

(١) ينظر: الأصوات اللغوية رؤية عضوية ونطقية وفيزيائية، سمير شريف ستيتية، دار وائل، عمّان، ط١، ٢٠٠٣: ١٤٣.

(٢) ينظر: الدراسة الأدبية –النظرية والتطبيق– نصوص قرآنية، عبد السلام أحمد الراغب، دار القلم العربي، ودار الرفاعي، حلب، ط١، ٢٠٠٥: ١١٠.

ومن الملحوظ أيضا أن أصوات هذه السورة جاءت على العكس من أصوات الآية التي سبقتها في التحليل، وقد وُفق سيد قطب في توصيف كل منها توصيفاً مناسباً.

٣- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾ الناس

قال سيد قطب في هذا النص المبارك: ((ونوع آخر من تصوير الألفاظ بجرسها يبدو في سورة الناس،...، اقرأها متوالية تجد صوتك يحدث وسوسة كاملة تناسب جو السورة، جو وسوسة الوسواس الخناس))[١].

أدرك سيد قطب أن قراءة السورة متوالية يجعل صوت القارئ يحدث وسوسة تناسب جو السورة، ونحن نقول مؤصلين لهذا الإدراك: إن هذه الوسوسة التي شعر بها سيد قطب وأدركها ناتجة بالدرجة الأساس عن تكرار صوت السين بشكل ظاهر في السورة، فقد تكرر فيها (١٠) مرات من أصل (٦٠) صوتاً صامتاً، فضلا عن انتهاء فواصل السورة به، فحين يوقف عليه بوصفه صوت فاصلة يكون أكثر تمكناً في الأسماع، وصوت السين صوت (مهموس/ احتكاكي)[٢] وهاتان الصفتان الضعيفتان[٣] ناسبتا تلك الوسوسة، فصوت السين أبرز تلك الوسوسة التي يخافت بها شياطين الإنس أهل المكائد والجرائم وأوصلها، فالسين أدل بجرسه الاحتكاكي الهامس على تصوير حالة الهمس الخفي[٤].

(١) التصوير الفني في القرآن: ٧٨..

(٢) ينظر: الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة، مكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: أحمد حسن فرحات، دار المعارف، دمشق، ١٩٧٣: ١٨٥، و علم الأصوات بين القدماء والمحدثين، علي حسن مزبان، دار شموع للثقافة، الزاوية، ط٢، ٢٠٠٩:٢٦.

(٣) مفهوم القوة والضعف في أصوات العربية، محمد يحيى سالم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦: ٧٧.

(٤) ينظر: التحليل الصوتي للنص، مهدي عناد قبها، دار أسامة، عمّان، ط١، ٢٠١٣: ١٥٦.

ثانياً: ملامح المفردات:

لمح سيد قطب في إحدى عشرة مفردة(*) ملامح صوتية ناتجة عن طبيعة أصوات تلك المفردة، فالمفردات تشكلت من أصوات تتسم بصفات معينة، هذه الصفات انسجمت مع دلالة كل المفردات انسجاماً ملحوظاً، وسنختار خمساً منها للتحليل:

١- حَسِيسَهَا:

وردت هذه المفردة في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ الأنبياء

قال سيد قطب في هذه المفردة)):ولفظة حسيسها من الألفاظ المصورة بجرسها لمعناها، فهو تنقّل صوت النار وهي تسري وتحرق، وتحدث ذلك الصوت المفزع، وانه يتفزّع له الجلد ويقشعر))[١].

وحين نؤصل لهذا الملمح الصوتي نقول: إن مرجعه إلى صوت السين، هذا الصوت الذي تكرر في المفردة مرتين ليضفي عليها جرسا قريبا جدا من صوت النار وهي تسري وتحرق، وذلك أن صوت السين ـ كما ذكرنا سابقا ـ صوت مهموس رخو وله صفة أخرى كان لها بالغ الأثر هنا وهي صفة (الصفير) هذه الصفة الناتجة عن شدة رخاوته[٢].

وصفير السين مع همسها ورخاوتها حاكى صوت النار وهي تحرق –أعاذنا الله تعالى–.

(*) الألفاظ هي: (خرقوا) الإنعام: ١٠٠، (سارب) الرعد:١٠، (بروجا) الحجر: ١٦،(حسيسها) الأنبياء: ١٠٢، (كبكبوا) الشعراء: ٩٤، (يصطرخون) فاطر: ٣٧، (يدعون) الطور: ١٣،(حاصب) القمر: ٣٤، (عتل) القلم: ١٣، (الطامة) النازعات: ٣٤، (الصاخة) عبس: ٣٣.

(١) في ظلال القران / ٤: ٢٣٩٩.

(٢) ينظر: شرح المفصل، ابن يعيش، المطبعة المنيرية،القاهرة،١٩٦٤: ١٣٠/١٠، و علم الأصوات، برتيل ما لمبرج، مكتبة الشباب، مصر، ١٩٨٥: ١٢٠.

٢ – فَكُبْكِبُوا:

وردت هذه المفردة في قوله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ ﴾ الشعراء.

قال سيد قطب فيها: ((وإننا لنكاد نسمع من جرس اللفظ صوت تدفعهم وتكفئهم وتساقطهم بلا عناية ولا نظام، وصوت الكركبة الناشئ عن الكبكبة كما ينهار الجرف فتتبعه الجروف فهو لفظ مصور بجرسه لمعناه)) (١).

وعندما نؤصل لهذا الملمح الصوتي نقول: إن مرجع ذلك الملمح إلى صوتين هما (الباء / والكاف)، فصوت الباء يوصف بأنه (مجهور / شديد / مقلقل) وصوت الكاف (مهموس/ شديد)(٢)، ونلحظ أن صوت الباء في وروده الأول كان بين كافين وكان ساكنا فقلقل قلقلة صغرى، وهذا كله عزّز معنى المفردة، فضلا عن أن ((الفعل (كبكب) مضعف للمقطع (كب) فيدل ذلك على تكرار الكب وتتابعه، كما يدل على الاجتماع والتراكم والتراكب لأهل النار بعضهم فوق بعض وتتابع كبهم وإلقائهم في النار على وجوههم في دركات الجحيم المتتالية))(٣)، فتكرار صوتي الباء و الكاف الشديدين مع قلقلة الباء الأولى مع كون الفعل مضاعفا انسجم تمام الانسجام مع سياق الوعيد والتهديد لأولئك الغاوين مما عزز التواصلية اللغوية في النص المبارك.

٣ – يَصْطَرِخُونَ:

وردت هذه المفردة في قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾فاطر.

قال سيد قطب في هذه المفردة: ((فيخيّل إليك جرسها الغليظ غلظ الصراخ المختلط المتجاوب من كل مكان، المنبعث من حناجر مكتظة بالأصوات الخشنة، كما

(١) في ظلال القران: ٥ / ٢٦٠٥.

(٢) ينظر: الرعاية: ٢٠٣ و ١٤٧.

(٣) الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، عبد الحميد هنداوي، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤: ٦٣.

تلقي إليك ظل الإهمال لهذا الاصطراخ الذي لا يجد من يهتم به أو يلبيه، وتلمح من وراء ذلك كله صورة ذلك العذاب الغليظ الذي هم فيه يصطرخون))[١].

وحين نقوم بتأصيل هذا الملمح صوتياً نرى أن سيد قطب قد أبدع في التوصيف إبداعاً كبيراً، فهو أحس بغلظ هذه الكلمة الذي عبر عن غلظ هذا الصراح المنبعث من حناجر أهل النار، وهذا الغلط ناتج عن اكتناز هذه اللفظة بأصوات غليظة هي (الصاد / الطاء / الخاء) فمن صفات الصاد والطاء إنهما صوتان مطبقان مستعليان، والخاء مستعلى أيضا، وصفتا الإطباق والاستعلاء جعلتا الصوت مفخما غليظا[٢] وهذا ما دفع سيد قطب إلى أن يوصّفها بالغلظ، وهذا الغلظ جعل الكلمة ((تلقي بظلالها على المشهد المفزع كله، وتبدع في عرضه وتصويره وتختزن كلّ ضجيجه وانفعالاته)) [٣]، وغلظ الأصوات و تشكلها بهذا النسج الباهر يوحي بأن الصراخ قد بلغ ذروته والاضطراب قد تجاوز مداه، فنرى ذلك كله قد تجسد ببروز الإطباق أثر توالي الصاد والطاء، ثم مجيء صوت الراء المكرر الموحى بتكرار ذلك الصياح، ثم الخاء المستعلي، والمد بالواو المعبرّ عن امتداد ذلك الصياح والصراخ، ثم الترنم بصوت النون ذلك الصوت الذي يمثل نغمة الحزن والألم[٤] فالمفردة اختزلت لوحة كاملة مرسومة بالأصوات لا الألوان.

٤- يُدَعُّونَ :

وردت هذه المفردة في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾الطور.

قال فيها سيد قطب: ((وقد يشترك الجرس والظل في لفظ واحد مثل (يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا رَّسُولٍ فلفظ (الدع) يصور مدلوله بجرسه وظله جمعياً، ومما يلاحظ هنا أن (الدعّ) هو الدفع في الظهور بعنف، وهذا الدفع في كثيرمن الأحيان يجعل

(١) التصوير الفني في القرآن: ٧٧، و ينظر: في ظلال القران:٥/ ٢٩٤٥.

(٢) ينظر: الأصوات اللغوية –النظام الصوتي للغة العربية، محمد علي الخولي، دار الفلاح، عمّان، ١٩٩٠: ٤٦، والدقائق المحكمات في المخارج والصفات: ١٨٠.

(٣) دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، قاسم بني دومي، عالم الكتب الحديث، اربد، ط١، ٢٠٠٦: ٢٣٣، وينظر: الإعجاز الفني في القرآن الكريم، عمر السلامي، دار المعارف، دمشق، ١٩٨٨: ٩٣.

(٤) ينظر: الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم: ٦١.

المدفوع يخرج صوتا غير إرادي فيه عين ساكنه هكذا: (أع) وهو في جرسه أقرب ما يكون من جرس الدّع))[١].

وإذا أردنا أن نؤصل لهذا الملمح تأصيلاً صوتياً نرى أنه يعتمد بالدرجة الأساس على صوت العين المشدد، والعين يوصف بأنه (مجهور، متوسط) وهو يخرج من وسط الحلق[٢].

ونلحظ هنا أن سيد قطب قد ربط بين جرس الصوت الناتج عن صفاته وخروجه من مخرج معين وقضية خارجة عن دلالة المفردة أسماها (الظل) و التي هي الصوت الذي يسمع عادة ممن يدفع دفعا قويا في ظهره، وهذه لمحة ذكية منه، فصوت العين المشدّد في كل من (يدعّون) و (دعّا) قد أسهم بشكل كبير في تصوير ذلك الدفع الشديد من الخلف، فالمشدّد للعين في الموضعين يشعر أو يكاد بالصوت الذي ينتجه المدفوع.

٥- ٱلصَّآخَّةُ:

وردت هذه المفردة في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ ﴾ عبس.

قال سيد قطب في هذه المفردة: ((لفظة تكاد تخرق صماخ الأذن في ثقلها وعنف جرسها، وشقه للهواء شقا، حتى يصل إلى الأذن صاخّا ملحا))[٣].

وحين نؤصل لهذا الملمح تأصيلاً صوتياً نرى أن السبب الذي جعل سيد قطب يشعر بذلك الثقل والعنف في جرس اللفظة حتى إنها لتكاد تخرق صماخ الأذن هو تشكلها من أصوات ذات صفات مفخمة وقوية – فضلا عن بنائها المقطعي –مما أبرز القيمة التواصلية لهذه اللفظة، فالصوتان الرئيسان المفخمان فيها هما (الصاد و الخاء) وهما صوتان مستعليان والصاد مطبق وهذه صفات جعلتهما مفخمين –كما ذكرنا سابقا–، والملاحظ أيضا أن صوت الألف قد أسهم بشكل فاعل في الثقل والعنف الموجود في اللفظة –على حد تعبير سيد– وذلك لأنه عندما جاء بعد صوت الصاد اكتسب التفخيم منه فصار مفخما، وهو مع ذلك ممدود مدا مثقلا كلمياً بست حركات وجوباً[٤]، وهذا جعل

(١) التصوير الفني في القرآن: ٧٩.

(٢) ينظر: الرعاية: ١٣٦، وعلم الأصوات بين القدماء والمحدثين: ٢٧..

(٣) التصوير الفني في القرآن: ٧٧.

(٤) ينظر: علم التجويد _ دراسة صوتية ميسرة، ١٤٤، والدقائق المحكمات في المخارج والصفات: ١٨٤.

التفخيم يستغرق اللفظة كلها مع المد الواجب وكان ذلك سبباً في إضفاء صفة القوة والعنف والثقل على اللفظة فكأنها تخرق صماخ الأذن إذا قُرئت بشكل صحيح.

المبحث الثاني

الملامح الصوتية الناتجة عن التشكّل المقطعي

لمح سيد قطب في بعض النماذج القرآنية ملامح صوتية ناتجة عن ظاهرة التشكّل المقطعي، أي أن الذي دعاه إلى وصفها بوصف صوتي معين انتظامها وفق تجمعات مقطعية معينة، وقد كانت هذه الملامح على نوعين، **الأول:** الملامح السياقية، **والثاني:** ملامح المفردات، وقبل أن نبدأ بالتحليل نذكر تعريف المقطع فهو: ((وحدة صوتية تبدأ بصامت يتبعه صائت، وتنتهي قبل أول صامت يرد متبوعاً بصائت))[1]، وأنواعه ستة هي: مقطع قصير مفتوح، ومقطع طويل مفتوح، ومقطع طويل بحركة قصيرة مغلق، ومقطع طويل بحركة طويلة مغلق، ومقطع زائد في الطول بحركة قصيرة مغلق، ومقطع زائد في الطول بحركة طويلة مغلقة[2]، ومنهجي في التقطيع الوقوف عند رؤوس الآي.

أولا: الملامح السياقية:

لمح سيد قطب في ستة[*] سياقات قرآنية ملامح صوتية ناتجة عن التشكل المقطعي، اخترنا منها ثلاثة نماذج للتحليل:

١- قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ

(١) أبحاث في أصوات العربية، حسام سعيد النعيمي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩٨: ٨، وينظر: علم الأصوات، مالمبرج: ١٦٤.

(٢) ينظر: علم الأصوات، حسام البهنساوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٨: ١٥١، و المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، رمضان عبد التواب، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية بمصر، ط ٢، ١٩٨٥: ١٠١.

(*) السياقات الستة هي: آل عمران: ١١٩، الأنعام: ١٦٠ – ١٦٥، القيامة: ٧– ١٠، المرسلات، الانفطار، الفجر: ٢١ – ٢٣.

أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ ﴾ آل عمران قال سيد قطب في هذا النص المبارك: ((أنها موسيقى الدعاء المتموجة الرخية))[١] حين نؤصل لهذا الملمح صوتيا نلحظ أنه قد ارتكز على أساس التشكّل المقطعي، فلو قطّعنا هذا النص صوتيا سنجده يتسق وفق التشكل المقطعي الآتي: (ر َ ب / ب َ نا / ما / خ َ ل َ ق / ت َ ه ا / ذا / با /ط ِ ل َ ن / س ُ ب / حا / ن َ ك ـَ/ ف َ ق ِ / نا / ع َ ذا / ب َ ن / نار * ر َ ب / ب َ نا / ا ِ ن / ن َ ك َ / م َ ن / ت ُ د / خ ِ ل ِ ن / نا / ر َ ف َ ق َ د / ا َ خ / ز َ ي / ت َ ه / هو / و َ ما / ل ِ ظ / ظا / ل ِ مي / ن َ / م ِ ن / ا َ ن / صار).

يظهر لنا من التقطيع السابق أن عدد المقاطع التي تشكل منه هذا النص (٥١) مقطعاً، كان عدد المقاطع المفتوحة (٣٣) مقطعاً بنسبة (٦٥،٧٠%)، وعدد المقاطع المغلقة (١٨) مقطعاً بنسبة (٣٥،٢٩)، فنلحظ ارتفاعا ظاهرا في نسبة المقاطع المفتوحة وهذا يتناسب مع امتداد الدعاء وانفتاحه، وظهر جليا كثرة المقطع الطويل المفتوح المتكون من صامت وحركة طويلة وذلك ليعزز جو الامتداد والانفتاح في الدعاء مما أبرز الوظيفة التواصلية للغة.

أما عن التموج الذي ذكره سيد قطب فيتضح في تناوب المقاطع المفتوحة والمغلقة في النص، ذلك التموج الذي ينساب على الأذن بهدوء ورخاوة من غير أن يخدشها.

٢- قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ ﴾ القيامة

قال سيد قطب في هذا النص: ((ومن ثم كان الجواب على التهكم بيوم القيامة واستبعاد موعدها، سريعاً خاطفاً حاسماً، ليس فيه تريث ولا إبطاء حتى في إيقاع النظم وجرس الألفاظ)) [٢].

(١) التصوير الفني في القران: ٩٢.

(٢) في ظلال القران: ٦ / ٣٧٦٩.

وإذا أردنا أن نؤصل لهذا الملمح تأصيلاً صوتياً فإننا نلحظ أنه قد بني على أساس تشكّل المقاطع في النص تشكلا أعطاه سمة السرعة والخطف والحسم، ولو قطّعنا النص سنجد أنه يتسق وفق التشكل المقطعي الآتي:

(فـ ـَ / ا ـِ / ذا / بـ ـَ / ر ـِ / قـ ـَ لـ / بـ ـَ / صـ ـَ ر / * / و ـَ / خـ ـَ / سـ ـَ / فـ ـَ لـ / قـ ـَ / مـ ـَ ر / * / و ـَ / جـ ـُ / مـ ـِ / عـ ـَ شـ / شـ ـَ مـ / سـ ـُ / و ـَ لـ / قـ ـَ / مـ ـَ ر).

يتضح لنا من التقطيع أن عدد المقاطع التي يتشكل منها هذا النص (٢٣) مقطعا، كان عدد المقاطع المفتوحة (١٥) مقطعاً بنسبة (٢١،٦٥%)، وعدد المقاطع المغلقة (٨) مقاطع بنسبة (٧٩،٣٤%)، ونلحظ من هذا كثرة المقاطع المفتوحة ولاسيما المقطع القصير المفتوح المتكون من صامت ومتحرك قصير فقد ورد (١٤) مرة من أصل (١٥) مقطعا مفتوحاً، وكون المقاطع المفتوحة قصيرة في أغلبها فهذا يفرض إيقاعاً سريعاً على النص لأن نواة هذا المقطع حركة قصيرة وهو مكون من صامت وحركة فقط، هذا كله أعطى سرعة في إيقاع النص أدركها سيد قطب بحسه المرهف، ويُلحظ أيضا أن النص قد خلا تقريبا من النوع الثاني من المقاطع المتكون من صامت وحركة طويلة، إذ لم يرد فيه إلا مرة واحدة في كلمة (إذا)، وهذا أيضا يفعِّلُ الإيقاع السريع الخفيف ويعزّزه انسجاماً مع الدلالات التي تحدث عنها النص بغية توصيلها إلى المتلقي، والتي تحدث بسرعة وخفة مع ما تحتاج إليه من قوة وقدرة، وهذا بدوره يجسد عظمة الخالق الجليل وقدرته[١].

٣- قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ ﴾ الفجر

قال سيد قطب في هذا النص: ((وفي بعض مشاهدها [أي: السورة] شدٌ وقصف سواء مناظرها أو موسيقاها كهذا المشهد العنيف المخيف)) [٢]، وقال أيضا: ((إنما يرتسم من وراء هذه الآيات ومن خلال موسيقاها الحادة التقسيم الشديدة الأسر مشهد ترجف له

(١) ينظر: الدلالة الصوتية في أي مشاهد القيامة، فيصل مرعي حسن، اطروحة دكتوراه، بإشراف: د. هاني صبري علي، جامعة الموصل، ٢٠٠٦: ٦٢.

(٢) في ظلال القرآن: ٦ / ٣٩٠٢..

القلوب، و تخشع له الأبصار، والأرض تُدك دكًّا، والجبار المتكبر يتجلى ويتولى الحكم والفصل، ويقف الملائكة صفا صفا، ثم يُجاء بجهنم فتقف متأهبة هي الأخرى..)) [١].

وحينما نؤصل لهذا الملمح تأصيلا صوتيا فإننا نرى أنه مبني على أساس التشكل المقطعي لهذا النص، هذا التشكل جعل موسيقاه حادة التقسيم شديدة قاصفة ـ على حد تعبير سيد قطب .، وإذا قمنا بتقطيع النص سنجد أنه يتسق وفق التشكل المقطعي الآتي:

(كـ ـَ ل/ لا / إ ـِ / ذا / د ـُ ك / ك ـَ / ت ـِ ل / أ ـَ ر/ ض ـُ / د ـَ ك / كـ ـَ ن /د ـَ ك / كا *و ـَ / جا / ء ـَ / ر ـَ ب / ب ـُ / ك ـَ / و ـَ ل / م ـَ / ل ـَ / ك ـُ / صـ ـَ ف / ف ـَ ن/ صـ ـَ ف / فا * و ـَ / جيـ / ء ـَ / ي ـَ و / م ـَ / ئ ـِ / ذ ـِ ن / ب ـِ / ج ـَ / ه ـَ ن / ن ـَ / م ـَ / ي ـَ و / م ـَ / ئ ـِ / ذ ـِ ن / ي ـَ / ت ـَ / ذ ـَ ك / ك ـَ / ز ـُ ل / إ ـِ ن / سا / ن ـُ / و ـَ / أ ـَ ن / نى / ل ـَ / ه ـُ ذ / ذ ـِ ك / رى)

يتضح لنا من هذا التقطيع أن عدد المقاطع التي يتشكل منها هذا النص (٥٨) مقطعاً، كان عدد المقاطع المفتوحة (٣٥) مقطعاً بنسبة (٣٤،٦٠%) من عدد المقاطع، و عدد المقاطع المغلقة (٢٣) مقطعاً بنسبة (٦٦، ٣٩ %) منه.

نلحظ من هذه النسب أن المقطع الطويل المغلق قد شكل نسبة جيدة من مقاطع النص، وهذا هو الذي عزز توصيل القوة و الحدّة والإخافة الموجودة في النص لتقر في قلب المتلقي، ونرى أن هذا النص جاء على العكس تماماً من النص الذي سبقه في التحليل، كلٌ بحسب دلالته.

ثانياً: ملامح المفردات:

لمح سيد قطب في ثلاث مفردات ملامح صوتية ناتجة عن ظاهرة التشكّل المقطعي، فالسبب الذي جعله يصفها بوصف صوتي معين والذي لم يقف عنده أحد من الدارسين – على حد اطلاعي – هو انتظامها وفق تشكل مقطعي معين ينسجم مع دلالة تلك المفردة انسجاماً كبيراً بهدف تحقيق التواصل بين النص ومستقبِلِه لمحه سيد ووصّفه، وهذه المفردات هي:

(١) المصدر نفسه: ٦ / ٣٩٠٦.

١- لَيُبَطِّئَنَّ:

وردت هذه اللفظة في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ ﴾ النساء

قال سيد قطب في هذه المفردة: ((ولفظة (ليبطئن) مختارة هنا بكل ما فيها من ثقل وتعثر، وان اللسان ليتعثر في حروفها وجرسها حتى يأتي على أخرها، وهو يشدها شداً، وإنها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويرا كاملاً بهذا التعثر والتثاقل في جرسها))[١]

وإذا أردنا أن نؤصل لهذا الملمح الصوتي الدقيق فيمكننا القول: إن ذلك التوصيف يرجع إلى التشكل المقطعي للفظة بالدرجة الأساس، وذلك أنها تشكلت مقطعياً من ستة مقاطع هي:(لـ ـَ / يـ ـُ / بـ ـَ ط / طـ ـِ /ئـ ـَ ن / نَ).

أربعة منها مفتوحة من النوع الأول (قصير مفتوح)، واثنان مغلقة من النوع (طويل بحركة قصيرة مغلق)، وحينما ندقق في التشكل المقطعي نجد أن المقطع القصير المفتوح يرد في بداية الكلمة مرتين مما يعطي سرعة في إيقاعها لكن المتكلم لا يلبث أن يقف ويتعثر في النطق بسبب ورود المقطع المغلق بعدهما مما يعطي ثقلاً على اللفظ، ثم يأتي المقطع الرابع قصيراً مفتوحاً مرة أخرى فيكون سريعاً في النطق لكن المتكلم لا يلبث أن يقف ويتعثر ثانية بسبب ورود المقطع المغلق بعده ليثقّل اللفظ، ثم يختم اللفظ بالمقطع القصير المفتوح. فالمقاطع بهذا التشكل الموحي الدقيق صورت حال أولئك المبطئين لأنفسهم ولغيرهم المتثاقلين عن الجهاد في سبيل الله أيما تصوير وأوصلته أيما ايصال.

٢- يَصَّعَّدُ:

وردت هذه المفردة في قوله تعالى: ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ الأنعام

(١) في ظلال القران:٢/ ٧٠٥، وينظر: التصوير الفني في القران: ٧٦.

قال سيد قطب في هذه المفردة:))وبناء اللفظ ذاته (يَصّعد) –كما هو في قراءة حفص– فيه هذا العسر والقبض والجهد، وجرسه يخيل هذا كله))[١].

وحينما نؤصل لهذا الملمح الدقيق تأصيلاً صوتياً نستطيع أن نقول: إن مرجعية ذلك التوصيف التشكل المقطعي للمفردة بالدرجة الأساس، وذلك أنها تشكلت مقطعيا من أربعة مقاطع هي: (يـ ـَصـ / صـ ـَعـ / عـ ـَ / دْ).

مقطعان مفتوحان من النوع الأول (قصير مفتوح)، ومقطعان مغلقان من النوع الثالث (طويل بحركة قصيرة مغلق)، وإذا تأملنا في التشكل المقطعي للمفردة نرى أنها قد ابتدأت بمقطعين مغلقين متواليين، وهذا يجعل النطق بهما ثقيلاً صعباً ثم بعد ذلك يأتي المقطعان المفتوحان، والمقاطع بهذا التناوب وهذا الاتساق تُجَسّد ذلك العسر والقبض والجهد الذي ذكره سيد لتنسجم صوتيا مع الدلالة التي تكتنز بها اللفظة في سياقها؛ فهي ((حالة نفسية تجسم في حالة حسية، من ضيق النفس، وكربة الصدر والرهق المضني في التصعد إلى السماء))[٢].

٣– اَثَّاقَلْتُمْ:

وردت هذه المفردة في قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ ﴾التوبة

قال سيد قطب فيها: ((وهي بجرسها تمثل الجسم المسترخي الثقيل، ويرفعه الرافعون في جهد فيسقط منهم في ثقل))[٣].

وإذا أصلنا صوتياً لهذا الملمح الدقيق جدا نستطيع أن نقول: إن ذلك التوصيف يرجع إلى التشكل المقطعي للمفردة، وقد تشكلت مقطعيا من أربعة مقاطع هي:

(هـ ـِثْ / ثا / قـ ـَلْ / تـ ـُم)

(١) في ظلال القران:٣ /١٢٠٣.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ١٦٥٥/٤.

ثلاثة منها مغلقة من النوع الثالث (طويل بحركة قصيرة مغلق)، ومقطع واحد من النوع الثاني (طويل مفتوح)، وحينما ندقق في هذا التشكل المقطعي نلحظ أن المفردة تبدأ بمقطع مغلق يضفي صفة الثقل في النطق ويوحي بثقل ذلك الجسم المسترخي، ثم يتبعه مقطع طويل مفتوح يوحي بذلك الرفع الذي يحاول الرافعون أن يرفعوا ذلك الجسد المسترخي المتعلق بالأرض لكنهم لا ينجحون في ذلك، ثم يأتي مقطعان مغلقان ثقيلان موحيان بأن ذلك الجسد قد حسم أمره واختار أن يلصق بتلك الأرض، وبهذا ندرك دقة توصيف سيد قطب لهذه اللفظة وانسجام ذلك التوصيف مع التشكل المقطعي لها، فهي ((قد جاءت معبرة تمام التعبير عن الفكرة التي سيقت من اجلها))[١] لها الأثر الكبير في توصيلها للمتلقي.

المبحث الثالث

الملامح الصوتية الناتجة عن التنغيم

لمح سيد قطب في بعض السياقات القرآنية ملامح صوتية منبثقة من ظاهرة التنغيم، والتنغيم هو: التغيرات التي تنتاب صوت المتكلم من ارتفاع أو انخفاض للتعبير عن معنى معين من فرح أو غضب أو تهكم أو استهزاء أو تعجب أو استفهام، أو نهي أو تمن وغير ذلك[٢].

وتقسم النغمات التي يؤدى بها الكلام على ثلاثة أنواع رئيسة[٣]:

١. نغمة صاعدة: وعندها يكون الصوت مرتفعا.
٢. نغمة متوسطة: وعندها يكون الصوت متوسط الارتفاع.
٣. نغمة هابطة: وعندها يكون الصوت منخفضا.

(١) الإعجاز الصوتي في القران الكريم:٥٠.

(٢) ينظر: علم اللغة العام (الأصوات) ، كمال محمد بشر، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٧١: ١٦٣، ومناهج البحث في اللغة، تمام حسان، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٧٩: ٢٨.

(٣) ينظر: التشكيل الصوتي في اللغة العربية– فونولوجيا العربية، سلمان حسن العاني، ترجمة: ياسر الملاح، النادي الأدبي الثقافي، جدّة، ط ١٩٨٣،١: ١٤٠، و التنغيم و دلالات التراكيب، نوزاد حسن أحمد، مجلة كلية الآداب والعلوم، جامعة قار يونس، ع١، ١٩٩٧: ١٩٨.

وقد لمح سيد قطب في عشرة سياقات(*) ملامح صوتية تعود إلى التنغيم، اخترنا منها خمسة للتحليل:

١- قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٢٧﴾ ﴾ آل عمران

قال سيد قطب في توصيفه لهذا النص المبارك: ((نداء خاشع، في تركيبه اللفظي إيقاع الدعاء، وفي ظلاله المعنوية روح الابتهال، وفي التفاتاته إلى كتاب الكون المفتوح استجاشة للمشاعر في رفق وإيناس))(١).

عندما نؤصل لهذا الملمح الصوتي فإننا نلمح إشارة إلى الأداء الصحيح لهذه الآية بخشوع وهدوء فهي تؤدى بنغمة هابطة، تلك النغمة الموحية الموصلة لمعاني التذلل والانكسار والابتهال.

ويعزز ذلك الجوَ الهادئ الخاشع المدودُ المبثوثة في أثناء الدعاء الواردة في كلمة (تشاء) التي تمد فيها الألف مدًا واجباً متصلاً . كما يقول أهل التجويد . بخمس حركات(٢)، وقد تكررت خمس مرات، فضلا عن الوقوف على الفاصلة الداخلية (الخير) والفاصلتين (قدير) و(حساب) بمدود عارضة للسكون يمكن أن تُمد من ٢ ← ٦ حركات(٣)، وقد تنبه سيد قطب إلى أثر ذلك المد الذي يعزز أداء النغمة الهابطة الخاشعة بقوله: ((فهذا المد يمنح الدعاء رنة رخية، وعذوبة صوتية، تناسب جو الدعاء والتوجه والابتهال))(٤).

ويمكننا ترسيم النغمة التي تؤدى بها الآية بالشكل الآتي:

(*) السياقات العشرة هي: آل عمران: ٢٦، الأنعام: ١٤،الأنعام: ١٩، الدخان، النجم: ٣٣ – ٥٤، الرحمن: ١ –٤، الحاقة:١–٣، الجن، المزمل: ١ –١٠، التكاثر.

(١) في ظلال القرآن: ١ /٣٨٤.

(٢) ينظر: النشر في القراءات العشر، ابن الجزري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٤، ٢٠١١: ٢٤٧/١، والدقائق المحكمات في المخارج والصفات، هشام عبد الباري محمد: ٢٤٤.

(٣) ينظر: علم التجويد – دراسة صوتية ميسرة: ١٥٦.

(٤) في ظلال القرآن: ٥٤٨/١.

قولــه تعــالى: ﴿ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ﴾الأنعام

قال سيد قطب في هذا النص المبارك: ((جاء الختام بالإيقاع العالي المجلجل، إيقاع الإشهاد على التوحيد، وإنكار الشرك، والمفاصلة الحاسمة))[1].

وعندما نؤصل لهذا الملمح الصوتي نقول: إن سيد قطب قد أدرك من خلال المعاني التي تحتوي عليها الآية أنها لا بد من أن تؤدى بتنغيم خاص يسهم في توصيل تلك المعاني القوية الحاسمة الصادحة، فاختار لها النغمة العالية، فحين تؤدى بهذه النغمة العالية المجلجلة تمنح القارئ شعورا بذلك التمكن للتوحيد من قلب القائل وتلك العزة التي امتلأ بها وجدانه، وهو ينكر الشرك وأهله ويفاصلهم مفاصلة حاسمة لا مداهنة فيها ولا مساومة، فالأمر لا يحتمل ذلك .

ترسيم للنغمة التي يؤدى بها النص:

٢- قولــه تعــالى: ﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ ﴾ الرحمن

قال سيد قطب في هذا النص المبارك: ((ورنة الإعلان تتجلى في بناء السورة كله... تتجلى في إطلاق الصوت إلى أعلى، وامتداد التصويت إلى بعيد، كما تتجلى في المطلع الموقظ الذي يستثير الترقب والانتظار لما يأتي بعد المطلع من أخبار)) [2].

(١) المصدر نفسه: ٢/ ١٠٤٨.

(٢) في ظلال القرآن: ٦/٣٤٤٥..

لقد أدرك سيد قطب بحسه المرهف أن هذه السورة، ولاسيما المقطع الأول منها لا بد من أن يؤدى (بإطلاق الصوت إلى أعلى) أي: بنغمة عالية، يمتد فيها الصوت إلى بعيد، حتى يصل إلى أعماق القلوب، لتَقرّ عند المتلقين ما فيه من أخبار يجب أن تكون راسخة في عقيدة المؤمن.

وحين يؤدى هذا المقطع المبارك من السورة بنغمة عالية فإنه يهز المتلقي هزا، ويفتح سمعه وقلبه ويوقظ حسه ووجدانه من أجل أن يثبّت هذه المعاني الراقية وما سيأتي بعدها على مدار السورة من أخبار تتجلى فيها لمسات رحمة الرحمن وتعرض آلاءه العظيمة.

وترسيم النغمة التي يؤدى بها النص هو:

٣- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡئٗا وَأَقۡوَمُ قِيلٗا ٦ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحٗا طَوِيلٗا ٧ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلًا ٨ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا ٩ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠ ﴾المزمل

قال سيد قطب في هذا النص المبارك: ((وشطر السورة الأول يمضي على إيقاع موسيقي واحد، ويكاد يكون على روي واحد، هو اللام المطلقة الممدودة، وهو إيقاع رخي وقور جليل، يتمشى مع جلال التكليف، وجدية الأمر، ومع الأهوال المتتابعة التي يعرضها السياق))[١].

(١) المصدر نفسه: ٣٧٤٣/٦..

نلحظ من هذا النص أنه قد أدرك طبيعة خطاب المولى جل وعلا لحبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم، فهو خطاب الحبيب للحبيب بإيقاع أبدع في وصفه حين قال:

(رخي وقور جليل)، ويمكننا تأصيل ذلك صوتيا بأنه الأداء بنغمة متوسطة، فهي ليست صاعدة ولا منخفضة، ليست صاعدة لأنه توجيه الحبيب للحبيب ومخاطبته له، وطبيعة خطاب الأحبة أن يكون هادئا، وليست منخفضة لأنها ضمت في أثنائها معاني جليلة وعظيمة وثقيلة، ضمت أوامر من الجليل سبحانه لحبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم بقيام الليل، وقراءة القرآن، ليكون ذلك زاده في تحمل أعباء الدعوة إلى الله تعالى.

وترسم هذه النغمة بالخطاطة الآتية: ← نغمة متوسطة

٤- قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ التكاثر

قال سيد قطب: ((هذه السورة ذات إيقاع جليل رهيب عميق، وكأنما هو صوت نذير، قائم على شرف عال، يمد بصوته ويدوي بنبرته، يصيح بنُوّم غافلين مخمورين سادرين أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة، وحسهم مسحور، فهو يمد بصوته إلى أعلى وأبعد ما يبلغ،...، ثم يقرع قلوبهم بهول ما ينتظرهم هنالك بعد زيارة المقابر في إيقاع عميق رزين))[1].

الناظر إلى هذا القول يشعر لأول وهلة أن فيه تناقضا، فتارة يقول: إيقاع السورة عميق في إشارة إلى كون النغمة هابطة ↙ ، وتارة يقول: إنها صوت نذير يمد بصوته ويدوي بنبرته في إشارة إلى كون النغمة صاعدة ↖ ، لكننا إذا دققنا في كلامه نجد أنه قد قسم السورة على قسمين ؛ **الأول**: وهو مطلعها ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١

(١) في ظلال القرآن: ٣٩٦٢/٦.

حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ بِهِمْ وهذا المقطع هو الذي يؤدى بنغمة صاعدة يصيح بهم كما يصيح بنُوّم غافلين مخمورين سادرين، **والثاني:** هو تتمة السورة (كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ مَا ..) فإنه يؤدى بنغمة هابطة وصّفها سيد بقوله (بإيقاع رزين) لكي تنسجم مع معاني التخويف والتفزيع التي ناسبتها –في نظر سيد– النغمة الهابطة، وكأنه يهمس في آذانهم، وقد صرح بذلك فيما بعد بقوله: ((وما يقرأ الإنسان هذه السورة الجليلة الرهيبة العميقة بإيقاعاتها الصاعدة الذاهبة في الفضاء إلى بعيد في مطلعها، الرصينة الذاهبة إلى القرار العميق في نهايتها حتى يشعر بثقل ما على عاتقه من أعقاب هذه الحياة الوامضة التي يحياها على الأرض))[1].

فالسورة الكريمة ذات المعاني الجليلة المخيفة حققت التواصل اللغوي على أكمله فهي تؤدى بنغمتين: نغمة صاعدة في مطلعها، ونغمة هابطة في نهايتها، وذلك كله متناسب ومتناسق مع الدلالات التي تحتويها، بغية التأثير في المتلقي وتصوير المعاني له أدق تصوير .

الخاتمة

بعد أن وفقني المولى جَلَّ وعلا لإتمام هذا البحث المبارك الذي خدمت فيه كلام ربي سبحانه، لا بد من تسجيل بعض النتائج التي خلص إليها البحث، ومنها:

- لقد لمح سيد قطب في نصوص ومفردات قرآنية ملامح صوتية دقيقة تنم عن رهافة حس ودقة ملاحظة.
- برزت القيمة العالية للأصوات في تحقيق التواصل اللغوي بين النص المبارك والمتلقي، فالصوت بمعطياته المتنوعة (من طبيعة أصوات وتشكل مقطعي وتنغيم) اتسق مع الدلالة الكامنة في المفردات أو السياقات فأسهم أيّما إسهام في التأثير بالمتلقي.

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦٣.

❖ بلغ عدد المواضع التي لمح فيها سيد قطب ملامح صوتية في كتابيه موضع الدرس (٤٠) موضعا من غير تكرار، تنوعت بين الملامح السياقية وملامح المفردات، فكانت الملامح السياقية في (٢٦) موضعا، وملامح المفردات في (١٤) موضعا.

❖ استطعت – بفضل الله تعالى– أن أردّ تلك الملامح إلى ثلاث ظواهر صوتية هي: ظاهرة طبيعة الأصوات – من صفات ومخارج– في (٢١) موضعا، وظاهرة التشكل المقطعي في (٩) مواضع، وظاهرة التنغيم في (١٠) مواضع.

❖ هناك بعض المفردات والسياقات قد تناولها بعض الدارسين بالتحليل لكنهم لم يؤصلوها كما أصّلتُها، منها مثلا (اثاقلتم / يصّعّد) و(كلا إذا دكت الأرض دكاً) فأنا – بفضل الله تعالى– قد قدمت قراءة جديدة في تأصيلها صوتياً.

❖ وردت الملامح الصوتية الناتجة عن طبيعة الأصوات في السياقات والمفردات، وكذلك وردت الملامح الصوتية الناتجة عن التشكل المقطعي، ولم ترد الملامح الناتجة عن التنغيم إلا في السياقات.

Sayed Quttob's Phonetic Features: Analytical study

Asst. Prof.Dr.Fesal Mrey AlTaiy

Abstract

The current study deals with the phonetic features highlighted by Sayed Quttob in his two books: (fi dhilal Al-Quran) and (Al-Tasweer Al-fanii fi AL-Quran).

As far as I know Sayed Quttob is the only interpreter who dealt with sound of the Holly Quran . He considers sound with its musical impact as a guideline for all systems, and a source for all linguistic studies. Due to his clear sense, He was able to recognize all that hidden beauty brought by all the perfect sounds following certain procedures which strengthen then the impact of the word, the sentence and the verse.